مدارس للسخط . . . ؟ !

للأستاذ ســـيد قطب

قال لى صاحبى : أما تفتأ هكذا ساخطاً على جميع المظاهر والأوضاع ؟ أرح أعصابك يا أخى ، ودع الخلق للخالق . إنه لا فائدة . لا فائدة من كل هذه الصرخات ! ! !

قلت لصاحبى : أما أنا فسأظل ساخطاً ، أعلن سخطى على كل شائه من المظاهر والأوضاع . ولن أدع الخلق للخالق ، لأن الخالق هو الذى يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ويصف قوماً ضعفوا واضمحلوا فيقول عن سبب الاضمحلال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ! » وأما أنه لا فائدة هناك ، فأنا لست يائساً ولا متشائماً ، واعتقادى الكامل أن هذا الكون الوسيع لا يضيع صوتاً واحداً ينطلق فيه بدعوة الحق ، ولا بد أن يردد صدى هذا الصوت فى يوم من الأيام ، طالت أو قصرت به الأعوام .

وقلت لصاحبى : إنه لو وكل إلىّ الأمر لأنشأت ضعف هذه المدارس التى تنشئها الدولة لأعلّم فيها هذا الشعب شيئاً واحداً هو السخط ! السخط على الأوضاع والمظاهر الشائهة التى تسيطر على حياة هذا الجيل فى كل اتجاه . فالسخط هو دليل الحيوية الكامنة ، والرضى بهذه الحال الماثلة هو نوع من اليأس والتشاؤم يقتل الأمم أو يؤدى بها إلى الاضمحلال .

أجل ، لو وكل إلىّ الأمر لأنشأت مدرسة للسخط على هذا الجيل من رجال السياسة فى هذا البلد ، أولئك الذين يتخاصمون فيتشاتمون ، ويتهم بعضهم بعضاً بكل كبيرة : بالخيانة . بالرشوة . بفساد الذمة . . . إلى آخر هذه الجعبة من الشتائم والتهم النكراء ، حتى إذا ارتفعت لهم تلك المعما السحرية ، عما دار الحماية التى هى دار السفارة ، أو دار السفارة التى هى دار الحماية ، نسوا كل ما قيل ، واتحدوا وائتلفوا ، وصافح بعضهم البعض ، وابتسم بعضهم لبعض ، وأثنى بعضهم على بعض ، والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون الجميع كاذبين فى الماضى ، وإما أن يكون الجميع كاذبين فى الحاضر ، وهم فى كل حال لا يؤمنون على مصير هذا الوطن ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم . . . كلهم جميعاً بدون استثناء !

ومدرسة للسخط على أولئك الكتاب والصحفيين ، الذين يقال عنهم إنهم قادة الرأى فى البلاد ، وإنهم آباء الشعب الروحيين ، أولئك الذين يسخرون أقلامهم وذممهم وضمائرهم لهذا الجيل من الساسة . فيضربون بأقلامهم ذات اليمين وذات الشمال ، وينهشون سمعة هذا السياسى أو ذاك ، ثم يعودون فيبيضون ما سودوا ، وقد يقفون مادحين فى حفلات تكريم تقام لأولئك الساسة الذين قالوا عنهم من قبل : إنهم مجرمون قذرون منحطون منخوبو الضمائر فاسدو الذمم ، لا استصلاح لهم بحال من الأحوال ! والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون هؤلاء القادة الروحيون كاذبين فى الماضى ، وإما أن يكونوا كاذبين فى الحاضر . وهم فى كل حال لا يؤمنون على قيادة الشعب الروحية ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم بين حال وحال !

ومدرسة للسخط على أولئك الوزراء الذين تطول ألسنتهم وتطول أقلامهم وهم يتطلعون إلى الكرسى المسحور ، فتتفتق قرائحهم عن خطط وبرامج للاصلاح الاجتماعى ، وللنهضة الفكرية وللقضية الوطنية ، ولإصلاح أداة الحكم ، ولتطهير الدواوين ، ولمكافحة اللجان . . إلى آخر ما تهديهم إليه اللهفة على ذلك الكرسى المسحور ، حتى إذا جلسوا فى ذلك الكرسى ، ندّ عنهم جميع ما أعدوا من خطط ، وما نسقوا من برامج ، ونفث فيهم ذلك الكرسى اللعين سحره الذى يعمى ويصم ، ويفسد الذمة ، ويكبت الضمير . . . ثم يطيح به الكرسى اللعين فيصحو من سبات ، ويجد له بعد ذلك عيناً يفتحها ولساناً يديره لإعادة الاسطوانة من جديد ! والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون هؤلاء كاذبين فى الأولى ، وإما أن يكونوا كاذبين فى الثانية . وهم فى كل حال لا يؤمنون على مصالح هذا الشعب ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم فى جميع الأحوال !

ومدرسة للسخط على أولئك الباشوات وغير الباشوات الذين يلحقون بعضوية الشركات ليكونوا ستاراً لهذه الشركات فى استغلال الشعب واستغفاله ، ثم يدعون أن الشركات إنما قدرت فيهم الكفاية الممتازة « ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » !

- ومدرسة للسخط على أولئك « الأرستقراط » الذين يعلمون من هم ، ويعرفون ينابيع ثروتهم أو ثروة آبائهم وأجدادهم ، ونصفهم يعلمون أن أصلهم القريب جارية أو معتوقة ، ونصفهم الآخر — إلا عدداً يعد على الأصابع — يعرفون أنهم هم أو آباؤهم أو أجدادهم على أكثر تقدير أدوا ثمن هـذا الثراء أعراضاً أو خدمات لايقوم بها الرجل الشريف للاحتلال ولغير الاحتلال ...

ومع هـذا كله يزمون أنوفهم اشمئزازاً من « الفلاحين » ومن « أبناء الشعب » على وجه العموم ، لأنهم ليسوا من « أولاد الذوات » وليسوا « أرستقراط » ! والشعب ينظر ويعجب : أكان حتماً على هذا الشعب كله أن يكون أبناء جوارى ومعاتيق ، أو أن يقوم بخدمات لايقوم بها الشرفاء للاحتلال وغير الاحتلال؟

ومدرسة للسخط على أولئك الذين ليسوا « أرستقراط » ، إنما هم من أبناء الشعب ، علمهم الشعب ، وارتفع بهم إلى مقاعد الوزارة وغير الوزارة ، وقد يكونون ممن تعلموا بالمجان لضيق ذات اليد والعجز عن أداء نفقات التعليم ، ثم هم بعد ذلك يتسخطون على « مجانية التعليم » ، لأنها تزحم المدارس بأولاد الفقراء ، ولأنها تمزج بين أبنائهم وأبناء الفقراء ، ولأنها تعلم أولادهم أخلاق الفقراء !

« يا دم » ! باللغة العامية الفصيحة ! شيئاً من الحياء يا هؤلاء ! شيئاً من الاعتراف بالجميل للشعب صاحب الجميل ! !

وتنشئ الدولة مدارس خاصة لأبناء الأغنياء ومن يتشبهون بالأغنياء ... لما ذا ؟ لأنهم مالوا بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية فراراً بهم من أبناء الشعب فى المدارس المجانية ! !

وما ذا على الدولة وما ذا على الشعب حين يذهب هؤلاء إلى الجحيم لا إلى المدارس الأجنبية ؟ إنه لا خير فيهم لهذا الشعب هنا أو هناك ! إنهم خوارج عليه لأنهم يتبرأون منه . فليذهبوا حيث يشاءون ، ولتسر الدولة فى الطريق المرسوم لتعميم المجانية ، فهو طريق إجبارى مهما عارض فيه المعارضون ، لأن المستقبل لن يسمح بفوارق الطبقات !

ومدرسة للسخط على محطة الإذاعة ، تلك المحطة التى تنقل ما فى المواخير والصالات ، وما فى الأفلام السينمائية ، وهى لا ترتفع عن المواخير والصالات ، تنقله إلى كل بيت ، وإلى كل سمع ، شاء من فى البيوت أم أبوا ، ورضى الناس أم كرهوا ، ولا تدع هذا الهراء القذر محدوداً فى الصالة أو الفيلم يراه من يشاء ، ويذهب إليه من يشاء ، بل تفرضه فرضاً على البيوت ، حتى إذا كان فيها بقية من إنسانية أو حياء ، قضت على هذه البقية الباقية من الإنسانية ومن الحياء ، وهى تصنع كل يوم هذه الجريمة وتنفق عليها من جيب هذا الشعب الذى تفتت كيانه فى كل لحظة من اللحظات !

ومدرسة للسخط على تلك الصحافة الداعرة ، التى تسمى نفسها « صحافة ناجحة » لأنها تنادى الغريزة الحيوانية وتستثيرها فى كل سطر وكل صورة ، وهو عمل رخيص لا يحتاج إلى براعة صحفية ، عمل يقوم به مديرو المواخير فيطاردهم بوليس الآداب فى كل مكان ! ودع عنك ما يقوم به بعض هذه الصحف من دعاية للاستعمار ولخدام الاستعمار ، وما يثبطون به عزائم المصريين كلما هموا للجهاد فى سبيل قضيتهم الكبرى . وما كانت هذه الصحف فى حاجة إلى تلك الدعاية السافرة أو المستترة ، فهى بما تنشر من صور داعرة ، وبما تثير من غرائز هابطة ، تقتل فى الأمة كل نخوة وكل شرف وكل قوة ، وتهيئها للاستغراق فى لذائذ حيوانية ، لا تسأل بعدها عن وطن ولا عن استقلال !

وأخيراً مدرسة للسخط على هذا الشعب الذى يسمح بكل هذه « المساخر » ، ويتقبل كل تلك الأوضاع ، دون أن ينتفض فينبذ هؤلاء وأولئك جميعاً ، وينفض يده من رجال السياسة المضللين ، ورجال الأدب والصحافة المأجورين ، ورجال الحكم الدلسين ، ومن الأرستقراط والمتسرطين ! ومن دعاة المواخير : فى محطة الإذاعة ، وفى السينما ، وفى الصحف ، وفى المواخير !

مدارس للسخط ! ما أحوج الشعب منها إلى الكثير ، إنه لأحوج إليها من الطعام والشراب . . فمن ينشئها ؟ !

أينشئها هذا الجيل من الشباب المائع المسترخى إلا النادر القليل ؟... كلا ! إنما تنشئها الأقلام المخلصة ، الأقلام التى تواجه الحقائق ، ولا تنفر منها ، ولا تخشى عاقبة الجهر بها ، الأقلام التى لا تيأس ولا تمل ، ولا تؤمن بأنه لا فائدة !

وإنها لفريضة على كل صاحب قلم ، ولن تضيع صرخة واحدة فى الهواء ، فالهواء أحفظ للأصداء ، والأجواء حفية بالدعاء ، ومن لم توقظه الدعوة ، فلتوقظه الصيحة ...

ولا يأس مع الحياة !

سيد قطب